منهج القرآن الكريم في بيان أنواع القلوب وصفاتها الحسنة (٢)

د. إدريس علي الطيِّب علي[1]

القسم الثاني: منهج القرآن الكريم في بيان صفات القلب السليم:

تقديم:

الحمد لله الذي جعل للقلب مكانة خاصة، وجعل سعادة العبد في سلامة قلبه وخشوعه وإخلاصه وإنابته وتعلقه بالله تعالى وحبه له، قال تعالى: {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ*إِلاّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة: الشعراء – الآيتان:٨٨-٨٩)، وقال تعالى: {مّنْ خَشِيَ الرّحْمَـنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مّنِيبٍ*ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} (سورة: ق – الآيات:٣٣-٣٥).

ثم الصلاة والسلام على رَسُولِ اللَّهِ القائل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[1]. والقائل أيضا: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[2].

[1] أستاذ مُساعد بالجامعة الإسلاميَّة . النّيجر.

١ – رواه مسلم كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم، ح رقم (٤٦٥١). عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ τ.

٢ – رواه البخاري (١٩/١)، كتاب الإيمان، باب (٣٩) فضل من استبرأ لدينه. ومسلم (١٢١٩/٣)، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم(١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير τ.

أما بعد، فقد تحدثنا في القسم الأول من هذا الموضوع عن أهمية دراسة مصطلح القلب في القرآن الكريم، وعرفنا به وببعض المصطلحات ذات العلاقة، ثم فصلنا القول عن أنواع القلوب وأقسامها من خلال بيان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ونخصص هذا القسم من البحث للحديث عن منهج القرآن في بيان صفات القلب السليم، وهي على قسمين كذلك: قسم من الصفات أخبر الله تعالى أنه منحها قلوب بعض عباده، والقسم الآخر من الصفات الحسنة اتصفت بها قلوب بعض العباد الصالحين، وفي تفصيل ذلك نقول –وبالله التوفيق–:

المبحث الأول: الصفات التي أخبر الله تعالى أنه منحها بعض القلوب:

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أنه منح بعض القلوب صفات حميدة، بسبب وبغير سبب، ومن ذلك قلوب بعض الأنبياء والمرسلين وعباده المؤمنين الذين علم ما في قلوبهم من الخير والتقى والفلاح، فكتب في بعضها الإيمان وهدى بعضها إلى الرشاد، وربط على بعضها، وبعض ألف بينها، وأنزل السكينة عليها، وغير ذلك مما ورد في آيات القرآن من مواقف مع عباد الله الصالحين، وفيما يلي نتتبع هذه المواضع التي أخبر بها الله في كتابه المجيد.

قلوب كتب الله فيها الإيمان:

قال تعالى: {لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدّونَ مَنْ حَآدّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوَاْ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أُوْلَـئِكَ **كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ** وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَـئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (سورة: المجادلة – الآية: ٢٢).

في هذه الآية الكريمة خبر من الله تعالى بأن الإيمان الحق يقتضي عدم موالات وموادَّة الكفار الذين يحآدُّون الله ورسوله ρ، ويترتب على ذلك أن الله تعالى وعد من يتبع أمره في هذا الخبر أنه يثبت الإيمان في قلبه، ويزينه فيه، ويكتب له الفلاح والنجاح، ويؤيده ويوفقه بقدرته تعالى، ويرضى عنه ويختم له بخاتمة السعادة الأبدية. ومع أن هذه الآية نزلت في أشخاص بعينهم ممن تقدم من السلف إلا أن وعد الله تعالى باق لا يتخلف لكل من وفى بالشرط، وخبره صادق في كل الحالات التي يلتزم فيها العبد بشرط الوعد المذكور.

قال ابن كثير–رحمه اللَّه: أي: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: { لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } (سورة: آل عمران–الآية: ٢٨)، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ

إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (سورة: التوبة –الآية: ٢٤).

قال: وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية :(لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) إلى آخرها، في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، حين قتل أباه يوم بدر. وقيل في قوله: (وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ) نزلت في أبي عبيده قتل أباه يوم بدر، (أَوْ أَبْنَاءَهُمْ) في أبي بكر الصديق، هَمَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، (أَوْ إِخْوَانَهُمْ) في مصعب بن عمير، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، (أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) في عمر، قتل قريبا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، والله أعلم.

قال: وقوله: (أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ) أي: من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه، فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان، أي: كتب له السعادة، وقررها في قلبه، وزين الإيمان في بصيرته[١].

قال أبو حيان الأندلسي–رحمه اللَّه: "والمعنى: أثبت الإيمان في قلوبهم، وأيدهم بروح منه تعالى، وهو الهدى والنور واللطف. وقيل: الروح: القرآن. وقيل: جبريل يوم بدر. وقيل: الضمير في منه عائد على الإيمان، والإنسان في نفسه روح يحيا به المؤمن"[٢].

١ – انظر: تفسير ابن كثير – (ج ٨ / ص ٥٤)، وانظر: زاد المسير – (ج ٨ / ص ١٩٩).
٢ – تفسير البحر المحيط – (ج ٨ / ص ٢٣٧).

قال سيد قطب-رحمه اللَّه: "(أولئك كتب في قلوبهم الإيمان)، فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم بيمين الرحمن. فلا زوال له ولا اندثار، ولا انطماس فيه ولا غموض! (وأيدهم بروح منه)، وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله. وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمدهم بالقوة والإشراق، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق"[١] .

قال ابن الجوزي-رحمه اللَّه: وهذه الآية قد بَيَّنتْ أن مودَّة الكفار تقدح في صحة الإيمان، وأن من كان مؤمناً لم يوالِ كافراً وإن كان أباه أو ابنه أو أحداً من عشيرته. وفي معنى «كتب» خمسة أقوال: أحدها: أثبت في قلوبهم الإيمان. والثاني: جعل. والثالث: كتب في اللوح المحفوظ أن في قلوبهم الإيمان. والرابع: حكم لهم بالإيمان. وإنما ذكر القلوب؛ لأنها موضع الإيمان. والخامس: جمع في قلوبهم الإيمان حتى استكملوه[٢].

قلوب هداها الله بسبب الإيمان:

قال تعالى: {مَآ أَصَابَ مِن مّصِيبَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ اللّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللّهِ **يَهْدِ قَلْبَهُ** وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (سورة: التغابن – الآية: ١١).

قال ابن كثير-رحمه اللَّه: "يقول تعالى مخبرًا بما أخبر به في سورة الحديد: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} (سورة: الحديد –الآية:٢٢)، وهكذا قال هاهنا: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ)، قال ابن عباس: بأمر الله، يعني: عن قدره ومشيئته. (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ

١ – في ظلال القرآن – (ج ٧ / ص ١٥٥).
٢ – انظر: زاد المسير – (ج ٨ / ص ١٩٩).

قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه، ويقينا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه. وعن ابن عباس: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[١].

قال ابن الجوزي–رحمه اللَّه: (ومن يؤمن بالله يهد قلبَه) فيه ستة أقوال: أحدها: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والثاني: يهد قلبه للاسترجاع، وهو أن يقول: إنا لله، وإنا إليه راجعون. والثالث: أنه إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. والرابع: يهد قلبه، أي: يجعله مهتدياً. والخامس: يهد وليَّه بالصبر والرضى. والسادس: يهد قلبه لإتباع السنة إذا صح إيمانه[٢].

وفي الحديث: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)[٣].

إذن فالقلب المهتدي بهداية الله تعالى قلب مؤمن مستسلم لأمر الله، وموقن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهو قلب مطمئن بقضاء الله تعالى، وما أسعد هذا القلب.

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٨ / ص ١٣٧–١٣٨).
٢ – انظر: زاد المسير – (ج ٨ / ص ٢٨٣).
٣ – رواه مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب المؤمن أمره كله خير، برقم (٥٣١٨).

قلوب ربط الله عليها:

قال تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىَ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن **رَّبَطْنَا عَلَىَ قَلْبِهَا** لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة: القصص – الآية: ١٠).

وهذا تأييد من الله تعالى لأم موسى –عليها السلام– عندما أطاعت أمر الله بأن ألقت فلذة كبدها في اليم لا تدري مصيره، ولما وسوس الشيطان في قلبها وبدأت تجزع وتخاف على ابنها أيدها الله تعالى بروح منه وربط على قلبها، ونسخ وسوسة الشيطان منه بسبب إيمانها وطاعتها ربها. وكل من آمن بالله تعالى وأطاع أمره طاعة صادقة في المكره والمنشط فإن الله تعالى يؤيده وينصره لا محالة.

قال ابن الجوزي–رحمه اللّه: قوله تعالى: (وأَصبح فؤادُ أُمِّ موسى فارغاً)، فيه أربعة أقوال: أحدها: فارغاً من كل شيء إلا من ذِكْر موسى. والثاني: أصبح فؤادها فَزِعاً. والثالث: فارغاً من وحينا بنسيانه. والرابع: فارغاً من الحزن، لِعِلْمها أنَّه لم يُقتَل. قال ابن قتيبة: وهذا من أعجب التفسير، كيف يكون كذلك واللّهُ يقول: (لولا أنْ رَبَطْنا على قَلْبها)؟ وهل يُرْبَطُ إلاّ على قلب الجازع المحزون؟!

قال: قوله تعالى: (لولا أنْ رَبَطْنَا على قَلْبِها)، قال الزجاج: المعنى: لولا ربطنا على قلبها، والرَّبْط: إلهام الصبر وتشديد القلب وتقويته.

قوله تعالى: (لِتَكُونَ مِنَ المؤمِنِينَ) أي: من المصَدِّقِين بوعد الله[1].

١ – انظر: زاد المسير – (ج ٦ / ص ٢٠٤–٢٠٥).

وقال تعالى: {نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بِالْحَقّ إِنّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى* **وَرَبَطْنَا عَلَىَ قُلُوبِهِمْ** إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبّنَا رَبّ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـهاً لّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً} (سورة: **الكهف – الآيتان:١٣-١٤**).

قال ابن الجوزي-رحمه اللَّه: "قوله تعالى: (نحن نَقُصُّ عليك نبأهم) أي: خبر الفتية (بالحق) أي: بالصدق. وقوله تعالى: (وزدناهم هدى) أي: ثبَّتناهم على الإيمان، (وربطنا على قلوبهم) أي: ألهمناها الصبر"[١].

قال أبو حيان-رحمه اللَّه: (وربطنا على قلوبهم) ثبتناها وقوّيناها على الصبر، على هجرة الوطن والنعيم، والفرار بالدين إلى غار في مكان قفر، لا أنيس به ولا ماء ولا طعام، ولما كان الفزع وخوف النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوّة التصميم أن تشبه الربط، ومنه فلان رابط الجأش إذا كانت نفسه لا تتفرق عند الفزع والحرب"[٢].

قال تعالى: {إِذْ يُغَشّيكُمُ النّعَاسَ أَمَنَةً مّنْهُ وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّن السّمَآءِ مَآءً لّيُطَهّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشّيْطَانِ **وَلِيَرْبِطَ عَلَىَ قُلُوبِكُمْ** وَيُثَبّتَ بِهِ الأَقْدَامَ* إِذْ يُوحِي رَبّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنّي مَعَكُمْ فَثَبّتُواْ

١ – زاد المسير – (ج ٥ / ص ١١٥).
٢ – تفسير البحر المحيط – (ج ٦ / ص ١٠٢).

الّـذِينَ آمَنُـواْ سَـأُلْقِي فِـي قُلُـوبِ الّـذِينَ كَفَـرُواْ الرّعْـبَ فَاضْـرِبُواْ فَـوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلّ بَنَانٍ } (سورة: الأنفال: الآيتان: ١١-١٢).

قال ابن الجوزي-رحمه اللَّه: قوله تعالى: (وينزِّلُ عليكم من السماء ماء)، قال ابن عباس: نزل النبي ρ يوم بدر، وبينه وبين الماء رملة، وغلبهم المشركون على الماء، فأصاب المسلمينَ الظمأُ، وجعلوا يصلّون محدِثين، وألقى الشيطان في قلوبهم الوسوسة، يقول: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلُّون محدِثين، فأنزل الله عليهم مطراً، فشربوا وتطَّهروا، واشتد الرمل حين أصابه المطر، وأزال الله رجز الشيطان، وهو وسواسه، حيث قال: قد غلبكم المشركون على الماء. وقال ابن زيد: رجز الشيطان: كيده، حيث أوقع في قلوبهم أنه ليس لكم بهؤلاء القوم طاقة. وقال ابن الأنباري: ساءهم عدم الماء عند فقرهم إليه، فأرسل الله السماء، فزالت وسوسة الشيطان التي تُكسب عذابَ الله وغضبه، إذ الرجز: العذاب. وقوله تعالى: (وليربط على قلوبكم) الربط: الشد. و«على» في قول بعضهم صلة، فالمعنى: وليربط قلوبكم. وفي الذي ربط به قلوبهم وقوَّاها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الصبر. والثاني: أنه الإيمان. والثالث: أنه المطر الذي أرسله يثبِّت به قلوبهم بعد اضطرابها بالوسوسة التي تقدم ذكرها[1].

قلوب ألَّف الله بينها:

قال تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً **فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ** فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ

١ - زاد المسير - (ج ٣ / ص ٣٢٨)، بتصرف يسير.

إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النّارِ فَأَنقَذَكُمْ مّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ } (سورة: آل عمران – الآية: ١٠٣).

قال الطبري–رحمه اللَّه: "وتأويل ذلك: واذكروا، أيها المؤمنون، نعمة الله عليكم التي أنعمَ بها عليكم، حين كنتم أعداء في شرككم، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً، تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم"[١].

وقال تعالى: {وَإِن يُرِيدُوَاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الّذِيَ أَيّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* **وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مّآ **أَلّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ** وَلَـَكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (سورة: الأنفال – الآيتان :٦٢–٦٣).

قال أبو جعفر–رحمه اللَّه: يريد جل ثناؤه بقوله: (وألف بين قلوبهم)، وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج، بعد التفرق والتشتت، على دينه الحق، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداء.

وقوله: (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ρ: لو أنفقت، يا محمد، ما في الأرض جميعا من ذهب ووَرِق وعَرَض، ما جمعت أنت بين قلوبهم بحيلك، ولكن الله جمعها على الهدى فأتلفت واجتمعت، تقوية من الله لك وتأييدًا منه ومعونة على عدوك. يقول جل ثناؤه: والذي فعل ذلك وسبَّبه لك حتى صاروا لك أعوانًا وأنصارًا ويدًا واحدة على من بغاك سوءًا، هو الذي

١ – تفسير الطبري – (ج ٧ / ص ٧٧).

إن رام عدوٌّ منك مرامًا يكفيك كيده وينصرك عليه، فثق به وامض لأمره، وتوكل عليه"[١].

قال ابن الجوزي-رحمه اللَّه: "قوله تعالى: (وألَّف بين قلوبهم) يعني: الأوس والخزرج، وهم الأنصار، كانت بينهم عداوة في الجاهلية، فألَّف الله بينهم بالإسلام. وهذا من أعجب الآيات؛ لأنهم كانوا ذوي أنفة شديدة؛ فلو أن رجلاً لطم رجلاً، لقاتلت عنه قبيلته حتى تدرك ثأره، فآل بهم الإسلام إلى أن يقتل الرجل ابنه وأباه"[٢].

قلوب نزع الله منها الغل:

قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي **صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ** تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (سورة: الأعراف – الآية : ٤٣).

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ* وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىَ سُرُرٍ مَّتَقَابِلِينَ} (سورة: الحجر – الآيات:٤٥-٤٧).

قال أبو جعفر-رحمه اللَّه: "يقول تعالى ذكره: وأذهبنا من صدور هؤلاء الذين وَصَف صفتهم، وأخبر أنهم أصحاب الجنة، ما فيها من حقد وغِمْرٍ وعَداوة كان من بعضهم في الدنيا على بعض، فجعلهم في الجنة إذا أدخلهموها على سُرُر متقابلين،

١ – تفسير الطبري – (ج ١٤ / ص ٤٥).
٢ – زاد المسير – (ج ٣ / ص ٣٧٧).

لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خصَّ الله به بعضهم وفضّله من كرامته عليه، تجري من تحتهم أنهار الجنة"[١].

وقال أيضا: "يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون، يقال لهم: (ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ) من عقاب الله، أو أن تُسلبوا نعمة أنعمها الله عليكم، وكرامة أكرمكم بها. قوله: (وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ) يقول: وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين وصف صفتهم من حقد وضغينة بعضهم لبعض"[٢].

قال ابن الجوزي–رحمه اللَّه: قوله تعالى: (ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ) فيمن عني بهذه الآية أربعة أقوال: أحدها: أهل بدر. روى الحسن عن علي τ أنه قال: فينا والله أهل بدر نزلت: (ونزعنا ما في صدورهم من غل). والثاني: أنهم أهل الأحقاد من أهل الجاهلية حين أسلموا. قال: غل الجاهلية، كان بين بني هاشم وبني تيم وبني عدي في الجاهلية شيء، فلما أسلم هؤلاء، تحابوا. والثالث: أنهم عشرة من الصحابة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود. والرابع: أنها في صفة أهل الجنة إذا دخلوها. روى أبو سعيد الخدريτ عن النبي ρ أنه قال: "يخلُصُ المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة،

١ – تفسير الطبري – (ج ١٢ / ص٤٣٧–٤٣٨).
٢ – تفسير الطبري – (ج ١٧ / ص ١٠٧).

فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)[١]. وقال ابن عباس: أول ما يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، تعرض لهم عينان فيشربون من إحدى العينين، فيُذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ وغيره مما كان في الدنيا، ثم يدخلون إلى العين الأخرى، فيغتسلون منها فتُشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم.

قال: فأما النزع: فهو قلع الشيء من مكانه. والغل: الحقد الكامن في الصدر. وقال ابن قتيبة: الغل: الحسد والعداوة[٢].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ **فِي صُدُورِهِمْ** حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَالَّذِينَ جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ **تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ** لِّلَّذِينَ آمَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} (**سورة: الحشر –الآيتان:٩-١٠**).

قال الطبري–رحمه اللَّه: "يقول تعالى ذكره: والذين جاءوا من بعد الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين الأوّلين (يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا

---

١ – الحديث رواه البخاري، كتاب المظالم، باب قصاص المظالم. وكتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، ولفظه: عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ τ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ρ: يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا).

٢ – انظر: زاد المسير – (ج ٣ / ص ١٩٩-٢٠١).

بِالإيمَانِ) من الأنصار. وعنى بالذين جاءوا من بعدهم المهاجرون أنهم يستغفرون لإخوانهم من الأنصار. وقوله: (وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا) يعني غمرا وضغنا. وقيل: عني بالذين جاءوا من بعدهم: الذين أسلموا من بعد الذين تبوّءوا الدار"[١].

قال ابن الجوزي-رحمه اللَّه: (ولا يجدون في صدورهم حاجة) أي: حسداً وغيظاً مما أوتي المهاجرون. وقوله تعالى: (والذين جاؤوا من بعدهم) يعني التابعين إلى يوم القيامة. قال الزجاج: والمعنى: ما أفاء الله على رسوله فلله وللرسول ولهؤلاء المسلمين، وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ρ، ودليل هذا قوله تعالى: (والذين جاؤوا من بعدهم) أي: الذين جاؤوا في حال قولهم: (ربنا اغفر لنا ولإخواننا) فمن ترحَّم على أصحاب رسول الله ρ ولم يكن في قلبه غِلٌّ لهم، فله حَظٌّ من فيء المسلمين، ومن شتمهم ولم يترحَّم عليهم، وكان في قلبه غِلٌّ لهم، فما جعل الله له حقاً في شيء من فيء المسلمين بنص الكتاب. وكذلك روي عن مالك بن أنس τ أنه قال: من تنقص أصحاب رسول الله ρ، أو كان في قلبه عليهم غِلٌّ، فليس له حق في فيء المسلمين، ثم تلا هذه الآيات[٢].

القلوب التي شفاها الله وأذهب غيظها:

قال تعالى: {أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوَاْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمّوا بِإِخْرَاجِ الرّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ

١ - تفسير الطبري - (ج ٢٣ / ص ٢٨٧).
٢ - انظر: زاد المسير - (ج ٨ / ص ٢١٢-٢١٦).

مّؤْمِنِينَ* قَاتِلُوهُمْ يُعَذّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ **وَيَشْفِ صُدُورَ** قَوْمٍ مّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ **غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَىَ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (سورة: التوبة – الآيات: ١٣-١٥).

قال أبو جعفر الطبري-رحمه اللَّه: "يقول تعالى ذكره: قاتلوا، أيها المؤمنون بالله ورسوله، هؤلاء المشركين الذين نكثوا أيمانهم، ونقضوا عهودهم بينكم وبينهم، وأخرجوا رسول الله ρ من بين أظهرهم =(يعذبهم الله بأيديكم)، يقول: يقتلهم الله بأيديكم =(ويخزهم)، يقول: ويذلهم بالأسر والقهر =(وينصركم عليهم)، فيعطيكم الظفر عليهم والغلبة =(ويشف صدور قوم مؤمنين)، يقول: ويبرئ داء صدور قوم مؤمنين بالله ورسوله، بقتل هؤلاء المشركين بأيديكم، وإذلالكم وقهركم إياهم. وذلك الداء، هو ما كان في قلوبهم عليهم من المَوْجِدة بما كانوا ينالونهم به من الأذى والمكروه. وقيل: إن الله عنى بقوله: (ويشف صدور قوم مؤمنين): صدورَ خزاعة حلفاءِ رسول الله ρ؛ وذلك أن قريشًا نقضوا العهد بينهم وبين رسول الله ρ بمعونتهم بكرًا عليهم"[1].

القلوب التي حبب الله إليها الإيمان وزينه فيها:

قال تعالى: {وَاعْلَمُواْ أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مّنَ الأمْرِ لَعَنِتّمْ وَلَـكِنّ اللّهَ حَبّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ **وَزَيّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** وَكَرّهَ

١ – تفسير الطبري – (ج ١٤ / ص ١٦٠).

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الرّاشِدُونَ} (سورة: الحجرات – الآية: ٧).

قال ابن كثير–رحمه اللَّه: وقوله: (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ) أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} (سورة: الأحزاب –الآية: ٦). ثم بَيَّن تعالى أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: {لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأمْرِ لَعَنِتُّمْ) أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحَرَجكم، كما قال تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ} (سورة: المؤمنون –الآية:٧١). وقوله: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار، والعصيان: وهي جميع المعاصي، وهذا تدريج لكمال النعمة. وقوله: (أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. ثم قال: (فَضْلا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) أي: هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أي: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره[1].

القلوب التي أنزل الله فيها السكينة:

١ – انظر: تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٣٧٢–٣٧٣).

قال تعالى: { هُوَ الّذِيَ أَنزَلَ **السّكِينَةَ فِي قُلُوبِ** الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوَاْ إِيمَاناً مّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلّهِ جُنُودُ السّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً } (سورة: الفتح –الآية: ٤).

قال ابن كثير–رحمه اللَّه: "يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزلَ السَّكِينَةَ) أي: جعل الطمأنينة. قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة. وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين. وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم"(١).

وقال تعالى: {لّقَدْ رَضِيَ اللّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي **قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السّكِينَةَ** عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً } (سورة: الفتح – الآية: ١٨).

قال ابن كثير–رحمه اللَّه: "يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ρ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عددهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. وقوله: (فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ) أي: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، (فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ): وهي الطمأنينة، (وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا): وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٣٢٨).

الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة"[١].

القلوب التي جعل الله فيها رأفة ورحمة:

قال تعالى: {ثُمّ قَفّيْنَا عَلَىَ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي **قُلُوبِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً** وَرَهْبَانِيّةً ابتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الّذِينَ آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (سورة: **الحديد – الآية: ٢٧**).

قال الطبري–رحمه اللَّه: "(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) يعني: الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته، (رَأْفَةً) وهو أشدّ الرحمة، (وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) يقول: أحدثوها (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) يقول: ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم، (إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) يقول: لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)"[٢].

وقال ابن كثير–رحمه اللَّه: "(وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ) وهم الحواريون (رَأْفَةً وَرَحْمَةً) أي: رأفة وهي: الخشية (وَرَحْمَةً) بالخلق. وقوله: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) أي: ابتدعتها أمة النصارى (مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٣٣٩–٣٤٠).
٢ – تفسير الطبري – (ج ٢٣ / ص ٢٠٢).

تلقاء أنفسهم. وقوله: (إِلا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ) فيه قولان، أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله. والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله"[١].

ومن خلال تتبع المواقف السابقة يتبين لنا أنها وردت في مواقف عظيمة، وهي في وصف قلوب الأنبياء والمرسلين أو أتباعهم الذين نصروهم وجاهدوا معهم؛ ولذلك نصرهم الله تعالى وأيدهم بروح منه، وربط على قلوبهم، وأثنى عليهم، ورضي عنهم، وهكذا كل من نصر الله أيده الله ونصره، قال تعالى: {يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تَنصُرُواْ اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ} (سورة: محمد – الآية: ٧).

المبحث الثاني: الصفات التي اتصف بها أصحاب القلوب السليمة:

القلب السليم وهو كما قال ابن رجب –رحمه اللَّه: "هو السالم من الآفات والمكروهات كلِّها، وهو القلب الذي ليس فيه سوى محبة اللَّه وما يحبه اللَّه، وخشية اللَّه، وخشية ما يُباعد منه"[٢].

وكما قال شيخ الإسلام –رحمه اللَّه: "وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك"[٣].

وكما قال ابن القيم –رحمه اللَّه: "هو السليمُ من الآفات التي تعتري القلوب المريضة، من مرض الشبهة التي توجب إتباع الظن، ومرضِ الشهوة التي توجب إتباع ما تهوى الأنفس، فالقلبُ السليمُ الذي سَلِمَ من هذا وهذا"[٤].

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٨ / ص ٢٩).
٢ – جامع العلوم والحكم (٢١١/١) .
٣ – مجموع الفتاوى (٣٣٧/١٠).
٤ – الروح لابن القيم (ص٥٤٤).

قال تعالى: {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ* إِلاّ مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة: الشعراء – الآيتان:٨٨-٨٩). وقال تعالى: {وَإِنّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ* إِذْ جَآءَ رَبّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (سورة: الصافات – الآيتان: ٨٣-٨٤).

ومنهج القرآن الكريم في بيان صفات هذا القلب أنه يذكر هذه الصفات ويوردها في سياقات مرتبطة ومتلازمة مع الأسباب والعلل التي جعلت القلب يكتسب تلك الصفات الحميدة؛ وهذه الأسباب التي ترتبط بصفات القلب السليم الصحيح المعافى من الأمراض هي في أغلب الأحوال العلاج الناجع لأمراض القلوب، فهناك ارتباط وثيق وصلة قوية بين هذه الأمور كلها؛ فالقرآن يذكر القلب الذي اتصف بالتقوى أو الاطمئنان أو الإخبات أو الإنابة أو غيرها من الصفات الحميدة، وفي نفس الآية وفي ذات السياق يذكر السبب الذي جعل القلب متقيا أو مطمئنا أو مخبتا أو منيبا. وفيما يلي نتتبع آيات القرآن الكريم لاستخلاص هذه الصفات الحميدة، ونضعها بين يدي القراء ولنذكر بها أنفسنا وإخواننا عسى أن نتصف بها ونتمسك بها.

القلوب التقية:

قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظّمْ حُرُمَاتِ اللّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لّهُ عِندَ رَبّهِ وَأُحِلّتْ لَكُمُ الأنْعَامُ إِلاّ مَا يُتْلَىَ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُواْ الرّجْسَ مِنَ الأوْثَانِ وَاجْتَنِبُواْ قَوْلَ الزّورِ* حُنَفَآءَ للّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَكَأَنّمَا خَرّ مِنَ السّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرّيحُ فِي مَكَانٍ

سَحِيقٍ* ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنّهَا مِن **تَقْوَى الْقُلُوبِ** } (سورة: **الحج – الآيات: ٣٠-٣٢**).

وقال تعالى: { إِنّ الّذِينَ يَغُضّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ الّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ **قُلُوبَهُمْ لِلتّقْوَى** لَهُم مّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ } (سورة: **الحجرات – الآية: ٣**).

التقوى من أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها قلب المؤمن الصادق في إيمانه مع ربه، وهي رأس الأمر؛ لأنها تعني في عمومها فعل ما أمر الشرع به والانتهاء عما نهى عنه. وفي الآية الأولى بيان لهذا الأمر؛ حيث إن التقوى تقتضي تعظيم حرمات الشرع، والابتعاد عن الشرك بالله وعن المفسقات الأخرى كقول الزور وغيره. وقد جاء الحث على الاتصاف بهذه الصفة في سياق الحض على كثير من الأوامر المهمة والفرائض الأساسية في الدين، والتحذير من ارتكاب المعاصي والتهاون بحرمات الدين، كما في قوله:(فاجْتَنِبُوا الرّجْسَ مِنَ الأَوْثانِ)، أي: فاتقوا عبادة الأوثان، وطاعة الشيطان في عبادتها فإنها رجس. وقوله: (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)، أي: واتقوا قول الكذب والفرية على الله، وفي هذا السياق فقد عُدِلت شهادة الزور بالشرك[1].

قال الطبري: "إن الله تعالى ذكره أخبر أن تعظيم شعائره، وهي ما حمله أعلاما لخلقه فيما تعبدهم به من مناسك حجهم، من الأماكن التي أمرهم بأداء ما افترض عليهم منها عندها والأعمال التي ألزمهم عملها في حجهم: من تقوى قلوبهم؛ لم يخصص من ذلك شيئا، فتعظيم كلّ ذلك من تقوى القلوب، كما قال جلّ ثناؤه؛

١ – انظر: تفسير الطبري – (ج ١٨ / ص ٦١٨-٦١٩).

وحق على عباده المؤمنين به تعظيم جميع ذلك. وقال:(فإِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب) وأنَّث ولم يقل: فإنه، لأنه أريد بذلك: فإن تلك التعظيمة مع اجتناب الرجس من الأوثان من تقوى القلوب، كما قال جلّ ثناؤه: (إنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفورٌ رحِيمٌ). وعنى بقوله: (فإِنَّها مِنْ تَقْوَى القُلُوب)، فإنها من وجل القلوب من خشية الله، وحقيقة معرفتها بعظمته وإخلاص توحيده"[١].

قال القرطبي: "وأضاف التقوى إلى القلوب؛ لأن حقيقة التقوى في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في صحيح الحديث: (التقوى هاهنا) وأشار إلى صدره"[٢].

وقال الشوكاني: "والضمير في قوله: (فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب) راجع إلى الشعائر بتقدير مضاف محذوف، أي فإن تعظيمها من تقوى القلوب أي: من أفعال القلوب التي هي من التقوى، فإن هذا التعظيم ناشىء من التقوى"[٣].

وفي الآية الثانية جعل احترام النبيρ وتوقيره وتعظيمه ومراعاة حقوقه وإتباع أمره من الأمور التي تمحص بها القلوب لاختبار تقواها.

فقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى)، أي: هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ρ، هم الذين اختبر الله قلوبهم بامتحانه إياها، فاصطفاها

١ – تفسير الطبري (١٨/٦٢٢-٦٢٣).
٢ – تفسير القرطبي (١٢/٥٦).
٣ – فتح القدير (٣/٥٦٥).

وأخلصها للتقوى، يعني لاتقائه بأداء طاعته، واجتناب معاصيه، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها، ويبطل خبثها[١].

قال ابن الجوزي: "(أولئك الذين امْتَحَنَ اللهُ قلوبَهم)، قال ابن عباسτ: أخلصها للتقوى من المعصية. وقال الزجاج: اختبر قلوبهم فوجدهم مُخلصين، كما تقول: قد امتحنت هذا الذهب والفضة، أي: اختبرتهما بأن أذبتهما حتى خَلَصا، فعلمت حقيقة كل واحد منهما. وقال ابن جرير: اختبرها بامتحانه إيّاها فاصطفاها وأخلصها للتَّقوى"[٢].

القلوب المطمئنة:

الاطمئنان من أعمال القلوب وصفاتها، وهو مرحلة أدق من الإيمان، وهو يجعل القلب ساكنا موقنا بالحقيقة التي يبحث عنها. فهو من الفعل: طمن الذي منه: طْمَأَنّ و طَأْمَنَ، تقول: طْمَأَنّ الرَّجُلُ اطْمِئْنَاناً وطُمَأْنِينَةً أي سَكَن وهو مُطْمَئِنْ إلى كذا وذاك مُطْمَأَنْ إليه. وطَمْأَنَ ظَهْرَه وطَأْمَنَه بمعنًى على القَلْب[٣]. وطَأْمَنَ الشيءَ سَكَّنه والطُّمَأْنِينَةُ السُّكونُ واطْمَأَنَّ الرجل اطْمِئناناً وطُمَأْنينة أَي سَكَن[٤].

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن **لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ

١ – انظر: تفسير الطبري (٢٢ / ٢٨٢).
٢ – زاد المسير (٤٥٨/٧).
٣– انظر: مختار الصحاح، مادة (طمن).
٤ – انظر: لسان العرب، مادة (طمن).

فَصُرْهُنّ إِلَيْكَ ثُمّ اجْعَلْ عَلَـىَ كُلّ جَبَلٍ مّنْهُنّ جُزْءًا ثُـمّ ادْعُهُنّ يَأْتِينَـكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (سورة البقرة– الآية: ٢٦٠).

قال الطبري: ومعنى قوله: (ليطمئن قلبي) ليسكن ويهدأ باليقين الذي يستيقنه. قال: وهذا التأويل الذي قلناه هو تأويل الذين وجَّهوا معنى قوله: (ليطمئن قلبي) إلى أنه: ليزداد إيمانًا أو إلى أنه: ليوقن. ثم أورد الروايات عن سعيد بن جبير والضحاك بذلك(١).

فإبراهيم υ مؤمن بأن الله تعالى هو الخالق ولكنه يريد أن يصل إلى مرحلة أعمق وأدق من مجرد التسليم، وهي مرحلة اليقين الذي يجعل النفس ساكنة، وقد أجابه الله تعالى لذلك فأراه كيف يحيي الموتى عيانا بالمثال الذي ذكرته الآية الكريمة.

قال الحسن البصري: "ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع ووجل وذل واستقام، واقتصر حتى يأتيه الموت"(٢).

وفي ذات السياق يأتي سؤال الحواريين لعيسى عليه السلام في قوله تعالى: { إِذْ قَالَ الْحَوَارِيّونَ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبّكَ أَن يُنَزّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مّنَ السّمَآءِ قَالَ اتّقُواْ اللّهَ إِن كُنْتُم مّؤْمِنِينَ* قَالُواْ نُرِيدُ أَن نّأْكُلَ مِنْهَا **وَتَطْمَئِنّ قُلُوبُنَا** وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشّاهِدِينَ } (سورة: المائدة – الآيتان: ١١٢–١١٣).

١ – انظر: تفسير الطبري – (ج ٥ / ص ٤٩٢).
٢ – اليقين لابن أبي الدنيا– (ج ١ / ص ١٧).

ومع أن عيسى υ استنكر هذا السؤال وأمرهم بتقوى الله تعالى إلا أنهم لما طلبوا علم اليقين الذي تسكن به النفس أجابهم الله تعالى لطلبهم ذلك.

قال أبو جعفر: "يعني تعالى ذكره بذلك: قال الحواريون مجيبي عيسى على قوله لهم:"اتقوا الله إن كنتم مؤمنين"، في قولكم لي: "هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء" =: إنا إنما قلنا ذلك، وسألناك أن تسأل لنا ربنا لنأكل من المائدة، فنعلم يقينًا قدرته على كل شيء، "وتطمئن قلوبنا" ، يقول: وتسكن قلوبنا، وتستقرّ على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد"[1].

ولنفس الغرض جاء وعد الله تعالى وبشارته لعباده المجاهدين مع نبيهρ في قوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرَىَ لَكُمْ **وَلِتَطْمَئِنّ قُلُوبُكُمْ** بِهِ وَمَا النّصْرُ إِلاّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (سورة: آل عمران – الآية: ١٢٦)، وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرَىَ **وَلِتَطْمَئِنّ بِهِ قُلُوبُكُمْ** وَمَا النّصْرُ إِلاّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* إِذْ يُغَشّيكُمُ النّعَاسَ أَمَنَةً مّنْهُ وَيُنَزّلُ عَلَيْكُم مّن السّمَآءِ مَآءً لّيُطَهّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىَ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبّتَ بِهِ الأقْدَامَ* إِذْ يُوحِي رَبّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنّي مَعَكُمْ فَثَبّتُواْ الّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُواْ الرّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلّ بَنَانٍ} (سورة: الأنفال – الآيات: ١٠-١٢).

١ – تفسير الطبري – (ج ١١ / ص ٢٢٤).

قال أبو جعفر: "يعني تعالى ذكره: وما جعل الله وعده إياكم ما وعدكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم "إلا بشرى لكم"، يعني بشرى، يبشركم بها. "ولتطمئن قلوبكم به"، يقول: وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم. "وما النصر إلا من عند الله"، يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قِبَل المدد الذي يأتيكم من الملائكة. يقول: فعلى الله فتوكلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإن نصركم إن كان إنما يكون بالله وبعونه ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلا أن يكون ذلك بعون الله وبتقويته إياكم على عدوكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة"[١].

والذي يؤكد أن الاطمئنان من أهم أعمال القلوب أن الإيمان إذا وقر في القلب وأيقن به وسكن له، فإنه لا يضر صاحبه بعد ذلك الإكراه على التلفظ بكلمة الكفر.

قال تعالى: {مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ **وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ** بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (سورة: النحل – الآية: ١٠٦).

١ – تفسير الطبري – (ج ٧ / ص ١٩٠).

قال بن الجوزي: (وقلبه مطمئن بالإيمان) أي: ساكن إليه راضٍ به. (ولكنْ مَن شرح بالكفر صدراً) قال قتادة: من أتاه بإيثار واختيار. وقال ابن قتيبة: من فتح له صدره بالقبول[١].

قال الشوكاني: والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر، واستثنى منهم المكره، فلا يدخل تحت حكم الافتراء. ثم قال: (ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) أي: اعتقده وطابت به نفسه واطمأن إليه (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ)[٢].

قال القرطبي: "أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان"[٣].

القلوب المنيبة:

قال ابن منظور: نابَ فلانٌ إلى اللّه تعالى وأَنابَ إليه إنابةً فهو مُنِيبٌ: أَقْبَلَ وتابَ ورجَع إلى الطاعة. وقيل: نابَ لَزِمَ الطاعة، وأَنابَ تابَ ورجَعَ. وفي التنزيل العزيز: (مُنِيبين إليه) أَي: راجعين إلى ما أَمَرَ به غير خارجين عن شيءٍ من أَمرِه. وقوله عز وجل: (وأَنِيبُوا إلى ربكم وأَسْلِمُوا له) أَي: تُوبوا إليه وارْجِعُوا[٤].

١ – زاد المسير – (ج ٤ / ص ٤٩٦).
٢ – فتح القدير – (ج ٣ / ص ٢٤٧).
٣ – تفسير القرطبي – (ج ١٠ / ص ١٨٢).
٤ – انظر: لسان العرب، و مختار الصحاح، مادة: (نوب).

قال الجرجاني: الإنابة: إخراج القلب من ظلمات الشبهات. وقيل: الإنابة: الرجوع من الكل إلى من له الكل. وقيل: الإنابة: الرجوع من الغفلة إلى الذكر، ومن الوحشة إلى الأنس"[١].

قال تعالى: {مَّنْ **خَشِيَ** الرَّحْمَـنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ **بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ*** ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} **(سورة: ق – الآيتان: ٣٣-٣٤)**.

قال الطبري: "وقوله: (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)، يقول: وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه"[٢].

قال ابن كثير: "(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) أي: من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله. (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه. (ادْخُلُوهَا) أي: الجنة. (بِسَلامٍ) قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله"[٣].

القلوب المخبتة:

قال ابن منظور: "وخبَتَ ذكره إذا خَفِيَ. قال: ومنه المِخْبِتُ من الناس، وأَخْبَتَ إلى ربه أَي اطْمَأَنَّ إليه. ورُوِي عن مجاهد في قوله: {وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ} **(سورة: الحج – الآية: ٣٤)** قال: المطْمَئِنِّين. وقيل: هم المتَواضِعون، وكذلك قال في قوله:

١ – التعريفات – (ج ١ / ص ١١).
٢ – تفسير الطبري – (ج ٢٢ / ص ٣٦٦).
٣ – تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٤٠٦).

{وأَخْبَتُوا إِلى ربهم} (سورة: هود الآية: ٢٣) أَي تواضَعُوا. وقال الفراء: أَي تَخَشَّعوا لربهم. قال: والعَرَبُ تَجْعَلُ إِلى في موضع اللام. وفيه خَبْتَة أَي تواضع. وأَخْبَتَ للَّه خَشَعَ. وأَخْبَتَ تواضَعَ. وكلاهما من الخَبْتِ، وفي التنزيل العزيز: {فَتُخْبِتَ لَه قُلوبُهم} (سورة: الحج – الآية: ٥٤)، فسره ثعلب بأَنه التواضُع. وفي حديث الدعاء (واجْعَلْني لك مُخْبِتاً) أَي خاشعاً مطيعاً. والإِخْباتُ الخُشوع والتَّواضُع. وفي حديث ابن عباس: (فيجعلها مُخْبِتةً مُنِيبةً). وأَصل ذلك من الخَبْتِ المطمئن من الأَرض، والخَبِيتُ الحَقير الرَّديءُ من الأَشياء"[1].

قال تعالى: {وَلِكُلّ أُمّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لّيَذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَىَ مَا رَزَقَهُمْ مّن بَهِيمَةِ الأنْعَامِ فَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ وَبَشّرِ **الْمُخْبِتِينَ*** الّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ **وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** وَالصّابِرِينَ عَلَىَ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصّلاَةِ وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (سورة الحج – الآيتان: ٣٤-٣٥].

قال الطبري: وقوله: (فَلَهُ أسْلِمُوا) يقول: فلإلهكم فاخضعوا بالطاعة، وله فذلوا بالإقرار بالعبودية. وقوله: (وَبَشِّرِ المخْبِتِينَ)، وبشر يا محمد الخاضعين لله بالطاعة، المذعنين له بالعبودية، المنيبين إليه بالتوبة.

قال: وقوله: (الّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...) فهذا من نعت المخبتين؛ يقول تعالى: وبشّر يا محمد المخبتين الذين تخشع قلوبهم لذكر الله وتخضع من خشيته وجلا من عقابه وخوفا من سخطه، (والصَّابِرِينَ عَلى ما أَصَابَهُمْ) من شدّة في أمر

١ – لسان العرب، مادة: (خبت).

الله، ونالهم من مكروه في جنبه، (والمقِيمي الصَّلاةِ) المفروضة، (وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ) من الأموال (يُنْفِقُونَ) في الواجب عليهم إنفاقها فيه، في زكاه ونفقة عيال ومن وجبت عليه نفقته وفي سبيل الله [١].

قال ابن كثير: "وقوله: (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا) أي: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضًا، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (سورة: الأنبياء- الآية: ٢٥). ولهذا قال: (فَلَهُ أَسْلِمُوا) أي: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته. (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك وقتادة: المتواضعين. وقال السدي: الوجلين. وقال عمرو بن أوس المخبتون: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا. وقال الثوري: (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له"[٢].

قال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقّ مِن رَّبّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنّ اللّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ} **(سورة: الحج – الآية: ٥٤).**

قال ابن كثير: "أي: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، وقوله: (فَيُؤْمِنُوا بِهِ) أي: يصدقوه وينقادوا له، (فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ) أي: تخضع وتذل، (وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى

١ – انظر: تفسير الطبري – (ج ١٨ / ص ٦٢٨-٦٢٩).
٢ – تفسير ابن كثير – (ج ٥ / ص ٤٢٤).

الحق وإتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات"[١].

قال ابن الجوزي: "(فتُخْبِتَ له قلوبهم) أي: تخضع وتَذِلّ. ثم بيَّن بباقي الآية أن هذا الإيمان والإخبات إنما هو بلطف الله وهدايته"[٢].

وقال في قوله تعالى: {وأخبتوا إلى ربهم} (سورة: هود الآية: ٢٣)، فيه سبعة أقوال: أحدها: خافوا ربهم، والثاني: أنابوا إلى ربهم، والثالث: ثابوا إلى ربهم، والرابع: اطمأنوا، والخامس: أخلصوا، والسادس: تخشَّعوا لربهم، والسابع: تواضعوا لربهم[٣].

القلوب الوجلة:

قال ابن منظور: "الوَجَل: الفزع والخوف، وَجِلَ وَجَلاً بالفتح. وفي الحديث: وَعَظَنا مَوْعِظة وَجِلَتْ منها القلوب"[٤].

قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ **وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (سورة: الأنفال – الآية: ٢). وقال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ **وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (سورة: الحج – الآية: ٣٥).

---

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٥ / ص ٤٤٦).
٢ – زاد المسير – (ج ٥ / ص ٤٤٣).
٣ – انظر: زاد المسير – (ج ٤ / ص ٩٢-٩٣).
٤ – انظر: لسان العرب، مادة (وجل).

قال أبو جعفر: "يقول تعالى ذكره: ليس المؤمن بالذي يخالف الله ورسوله، ويترك اتباعَ ما أنزله إليه في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وَجِل قلبه، وانقاد لأمره، وخضع لذكره، خوفًا منه، وفَرَقًا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها، وأيقن أنها من عند الله، فازداد بتصديقه بذلك، إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك، تصديقًا. وذلك هو زيادة ما تلي عليهم من آيات الله إيَّاهم إيمانًا، "وعلى ربهم يتوكلون"، يقول: وبالله يوقنون، في أن قضاءه فيهم ماضٍ، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه"[١].

قال ابن الجوزي: قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله) قال الزجاج: إذا ذُكرتْ عظمتُه وقدرتُه وما خوَّف به من عصاه، فزعت قلوبهم. يقال: وجِل يَوْجَل ويَاجَل ويَيْجَل ويِيجَل، هذه أربع لغات حكاها سيبويه. وأجودها: يَوْجَل. وقال السدي: هو الرجل يهمُّ بالمعصية فيذكر الله فينزِع عنها. وقوله تعالى: (وإذا تليت عليهم آياته) أي: آيات القرآن. وفي قوله: (زادتهم إيماناً) ثلاثة أقوال. أحدها: تصديقاً. والمعنى : أنهم كلما جاءهم شيء عن الله آمنوا به فيزدادوا إيماناً بزيادة الآيات. والثاني: يقيناً. والثالث: خشية الله[٢].

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ* وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ **وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** أَنَّهُمْ إِلَىَ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ* أُوْلَـئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} (سورة: المؤمنون – الآيات: ٥٧-٦١).

١ – تفسير الطبري – (ج ١٣ / ص ٣٨٥).
٢ – انظر: زاد المسير – (ج ٣ / ص ٣٢٠-٣٢١).

قال الطبري: يعني إن الذين هم من خشيتهم وخوفهم من عذاب الله مشفقون، فهم من خشيتهم من ذلك دائبون في طاعته جادّون في طلب مرضاته، (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) يقول: والذين هم بآيات كتابه وحججه مصدقون، (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ) يقول: والذين يخلصون لربهم عبادتهم، فلا يجعلون له فيها لغيره شركا لوثَن ، ولا لصنم، ولا يُراءون بها أحدا من خلقه، ولكنهم يجعلون أعمالهم لوجهه خالصا، وإياه يقصدون بالطاعة والعبادة دون كل شيء سواه. (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا) والذين يعطون أهل سُهْمان الصدقة ما فرض الله لهم في أموالهم، (مَا آتَوْا) يعني: ما أعطوهم إياه من صدقة، ويؤدّون حقوق الله عليهم في أموالهم إلى أهلها، (وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) يقول: خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، فلا ينجيهم ما فعلوا من ذلك من عذاب الله، فهم خائفون من المرجع إلى الله[1].

قال ابن كثير: "أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا". (وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ) أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كما قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ) أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لا نظير له ولا كفء له. وقوله: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) أي: يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل

١ – انظر: تفسير الطبري – (ج ١٩ / ص ٤٤)، بتصرف يسير.

منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط[١].

وعن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: يا رسول الله، (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: "لا يا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل"[٢].

القلوب الخاشعة:

قال الجرجاني: الخشوع والخضوع والتواضع بمعنى واحد، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: الخشوع الانقياد للحق، وقيل: هو الخوف الدائم في القلب، وقيل: من علامات الخشوع أن العبد إذا غضب أو خولف أو رد عليه استقبل ذلك بالقبول. قال: والخاشع المتواضع لله بقلبه وجوارحه. والخشية: تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل[٣].

قال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُواْ أَن **تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ** لِذِكْرِ اللّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ **فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ** وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (سورة: الحديد – الآية: ١٦).

١ – انظر: تفسير ابن كثير – (ج ٥ / ص ٤٨٠).
٢ – رواه أحمد في المسند (١٥٩/٦) وسنن الترمذي برقم (٣١٧٥).
٣ – انظر: التعريفات – (ج ١ / ص ٣١-٣٢).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا): ألم يحن للذين صدقوا الله ورسوله أن تلين قلوبهم لذكر الله، فتخضع قلوبهم له، ولما نزل من الحقّ، وهو هذا القرآن الذي نزله على رسوله ρ"[١].

قال ابن كثير: "يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه"[٢].

القلوب الآئبة إلى الله:

التَّوْبةُ في اللغة: الرُّجُوعُ من الذَّنْبِ. وفي الحديث: النَّدَمُ تَوْبةٌ. والتَّوْبُ مثلُه. وقال الأَخفش: التَّوْبُ جمع تَوْبةٍ. وتابَ إِلى اللّهِ يَتُوبُ تَوْباً وتَوْبةً ومَتاباً: أَنابَ ورَجَعَ عن المِعْصيةِ إِلى الطاعةِ. وأَصلُ تابَ عادَ إِلى اللّهِ ورَجَعَ وأَنابَ، وتابَ اللّهُ عليه أَي عاد عليه بالمِغْفِرة. وقوله تعالى: (وتُوبُوا إِلى اللّه جَمِيعاً) أَي عُودُوا إِلى طَاعتِه وأَنيبُوا إِليه. ورَجل تَوَّابٌ تائِبٌ إِلى اللّهِ، واللّهُ تَوّابٌ يَتُوبُ علَى عَبْدِه بفَضْله إِذا تابَ إِليهِ من ذَنْبه[٣].

والتوبة في الشرع: الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب. والتوبة النصوح: هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله، قال ابن عباس – رضي الله عنهما: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإضمار على ألا يعود. وقيل: التوبة النصوح: ألا يبقي على عمله أثراً من المعصية

١ – تفسير الطبري – (ج ٢٣ / ص ١٨٧).
٢ – تفسير ابن كثير – (ج ٨ / ص ١٩).
٣ – انظر: لسان العرب، مادة: (توب).

سرًّا وجهراً، وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلاً وآجلاً، وقيل: التوبة: الإعراض والندم والإقلاع، والتوبة على ثلاثة معان: أولها الندم، والثاني: العزم على ترك العود إلى ما نهى الله تعالى عنه، والثالث: السعي في أداء المظالم. وهي الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى الممدوحة، وهي واجبة على الفور، عند عامة العلماء، أما الوجوب فلقوله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون). وأما الفورية، فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة قريبة من التوبة لغةً وشرعاً[١].

قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا **كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ** فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ* وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىَ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ **وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ** وَظَنُّوَاْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوَاْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (سورة: التوبة – الآيتان: ١١٧-١١٨).

قال ابن الجوزي: الآية نزلت في كعب بن مالك، ومُرارةَ بن الربيع، وهلال بن أمية، وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري؛ فوقف رسول اللهρ أمرهم، ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزل قوله: (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا)"[٢].

١ – انظر: التعريفات – (ج ١ / ص ٢٢).
٢ – زاد المسير – (ج ٣ / ص ٤٩٧)، وانظر: تفسير ابن كثير –(ج ٤ / ص ٢٣٠).

قال: وقوله تعالى: (الذين اتبعوه في ساعة العسرة)، قال الزجاج: هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك، والمراد بساعة العسرة: وقت العسرة ؛لأن الساعة تقع على كل الزمان، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ، والقوم في ضيقة شديدة، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه، وكانوا في فقر، فربما اقتسم التمرة اثنان، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر. وقيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن ساعة العسرة، فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستتقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا، قال: تحب ذلك؟ قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر. وقوله تعالى: (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم)، في معنى الكلام ثلاثة أقوال. أحدها: تميل إلى التخلف عنه، وهم ناس من المسلمين هَمُّوا بذلك، ثم لحقوه. والثاني: أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها، ولم تَزِغ عن الإيمان. والثالث: أن القلوب كادت تزيغ تلفاً بالجهد والشدة. وقوله تعالى: (ثم تاب عليهم) كرر ذكر التوبة؛ لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم، فقدم ذِكر التوبة فضلاً منه، ثم ذكر ذنبه، ثم أعاد ذِكر التوبة. وقوله تعالى: (الذين خُلِّفُوا)، في معنى «خُلّفوا» قولان. أحدهما: خُلِّفوا عن التوبة، فيكون المعنى: خُلِّفوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك. والثاني: خُلِّفوا عن غزوة تبوك. وقوله تعالى: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت) أي: ضاقت مع سَعَتها، وذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم، وأُمروا باعتزال أزواجهم، وكان النبي ρ مُعرِضاً عنهم. (وضاقت عليهم أنفسهم) بالهمِّ والغمِ. (وظنوا) أي: أيقنوا. (أن لا ملجأ) أي: لا معتصَم من

الله ومن عذابه إلا هو. (ثم تاب عليهم)، أعاد التوبة تأكيداً، (ليتوبوا) قال ابن عباس: ليستقيموا. وقال غيره: وفَّقهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها[١].

قال ابن كثير: "(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ) أي: رجاع تائب مقلع، (حفيظ) أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه. قال: وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذي لا يجلس مجلسًا فيقوم حتى يستغفر الله، عز وجل" [٢].

قال أبو السعود: "(لِكُلّ أَوَّابٍ) أيْ: رجّاع إلى الله تعالَى، بدلٌ منْ المتقينَ بإعادةِ الجارِّ. (حَفِيظٌ) حافظٌ لتوبتهِ من النقضِ، وقيلَ: هُوَ الذَّي يحفظُ ذنوبَهُ حتَّى يرجعَ عنْهَا ويستغفرَ مِنْها، وقيلَ: هُو الحافظُ لأوامرِ الله تعالَى، وقيلَ: لِمَا استودَعَهُ الله تعالَى مِنْ حقوقِها"[٣].

١ – انظر: زاد المسير – (ج ٣ / ص ٥١١-٥١٣).
٢ – تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٤٠٦).
٣ – إرشاد العقل السليم – (ج ٨ / ص ١٣٢).

القلوب اللينة:

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ **لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ** كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ يُحِبّ الْمُتَوَكّلِينَ} (سورة: آل عمران – الآية: ١٥٩).

قال الطبري: "فتأويل الكلام: فبرحمة الله، يا محمد، ورأفته بك وبمن آمن بك من أصحابك (لنت لهم)، لتبَّاعك وأصحابك، فسُهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمَه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك ففارقك ولم يتَّبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم". قال: "وأما قوله: (ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك)، فإنه يعني بـ"الفظ" الجافي، وبـ"الغليظ القلب"، القاسي القلب، غير ذي رحمة ولا رأفة. وكذلك كانت صفته ρ، كما وصفه الله به: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (سورة التوبة: ١٢٨)"[١].

قال أبو السعود: "والتنوينُ للتفخيم ومِنْ متعلقةٌ بمحذوف وقع صفةً لرحمةٍ، أي: فبرحمةٍ عظيمة لهم كائنةٍ من الله تعالى، وهي ربطُه على جأشه وتخصيصُه بمكارم الأخلاقِ، كنتَ ليِّنَ الجانبِ لهم وعامَلْتَهم بالرفق والتلطّفِ بهم، حيث اغتمَمْتَ لهم

١ – تفسير الطبري – (ج ٧ / ص ٣٤١).

بعد ما كان منهم ما كان من مخالفة أمرِك وإسلامِك للعدو. (وَلَوْ) لم تكن كذلك بل (كُنْتَ فَظّاً) جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً، وقال الراغبُ: الفَظُّ: هو الكَرِيهُ الخُلُقِ. وقال الواحديُّ: هو الغليظُ الجانبِ السيءُ الخُلُق، (غَلِيظَ القلب) قاسِيَه، وقال الكلبي: فظّاً في القول، غليظَ القلبِ في الفعل، (لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ) لَتفرَّقوا من عندك ولم يسكُنوا إليك وتردَّوْا في مهاوي الردى، والفاء في قوله عز وجل: (فاعف عَنْهُمْ) لترتيب العفوِ أو الأمرِ به على ما قبله، أي إذا كان الأمرُ كما ذُكر فاعفُ عنهم فيما يتعلق بحقوقك كما عفا الله عنهم، (واستغفر لَهُمُ) الله فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماماً للشفقة عليهم وإكمالاً للبِرّ بهم"[1].

قال تعالى: {اللّهُ نَزّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مّتَشَابِهاً مّثَانِيَ تَقْشَعِرّ مِنْهُ جُلُودُ الّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ **ثُمّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ** إِلَىَ ذِكْرِ اللّهِ ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} **(سورة: الزمر – الآية: ٢٣)**.

قال الطبري: (اللَّهُ نزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا) يعني به القرآن (مُتَشَابِهًا) يقول: يشبه بعضه بعضا، لا اختلاف فيه، ولا تضادّ. الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف. وقوله: (مَثَانِيَ) يقول: تُثنى فيه الأنباء والأخبار والقضاء والأحكام والحجج. وقوله: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)، تقشعرّ من سَماعه إذا تلي عليهم جلود الذين يخافون ربهم (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) يعني إلى العمل بما

١ – إرشاد العقل السليم – (ج ٢ / ص ١٠٥).

في كتاب الله، والتصديق به. (ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ)، هذا الذي يصيب هؤلاء القوم الذين وصفت صفتهم عند سماعهم القرآن من اقشعرار جلودهم ثم لينها ولين قلوبهم إلى ذكر الله من بعد ذلك، (هُدَى اللَّهِ) يعني: توفيق الله إياهم وفَّقهم له، (يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) يقول: يهدي تبارك وتعالى بالقرآن من يشاء من عباده[1].

قال أبو السعود: "قوله تعالى: (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)، قيل: صفةٌ ل(كتاباً) أو حالٌ منه لتخصُّصه بالصِّفةِ، والأظهر أنَّه استئنافٌ مسوق لبيانِ آثارِه الظَّاهرةِ في سامعيهِ بعد بيانِ أوصافهِ في نفسِه ولتقريرِ كونِه أحسنَ الحديثِ. والاقشعرارُ التَّقبضُ، يقال: اقشعرَّ الجلدُ إذا تقبَّضَ تقبُّضاً شَديداً. وتركيبُه من القَشع وهو الأديمُ اليابسُ قد ضُمَّ إليه الرَّاءُ ليكونَ رُباعيًّا ودَالاًّ على معنى زائد، يُقال: اقشعرَّ جلدُه وقفَ شعرُه إذا عرضَ له خوفٌ شديدٌ من منكرٍ هائلٍ دهمه بغتة. والمرادُ إمَّا بيانُ إفراطِ خشيتِهم بطريقِ التَّمثيلِ والتَّصويرِ أو بيانُ حصولِ تلك الحالةِ وعرُوضِها لهم بطريقِ التَّحقيقِ. والمعني أنَّهم إذا سمعُوا القُرآنَ وقوارعَ آياتِ وعيده أصابتُهم هيبةٌ وخشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم، وإذا ذُكِّروا رحمةَ الله تعالى تبدَّلتْ خشيتُهم رجاءً، ورهبتُهم رغبةً، وذلك قولُه تعالى: (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله) أي ساكنةً مطمئنَّةً إلى ذكر رحمتِه تعالى وإنَّما لم يُصرِّحْ بها إيذاناً بأنَّها أولُ ما يخطرُ بالبال عند

١ – انظر: تفسير الطبري – (ج ٢١ / ص ٢٧٩–٢٨٠).

ذكـرِه تعـالى. (ذلـك) أي الكتـابُ الـذي شُـرِحَ أحوالُـه (هُـدَى الله يَهْـدِى بِـهِ مَـن يَشَاء)"[١].

١ – إرشاد العقل السليم – (ج ٧ / ص ٢٥١).

القلوب المعتبرة بالذكرى:

قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقّبُواْ فِي الْبِلاَدِ هَلْ مِن مّحِيصٍ* إِنّ فِي ذَلِكَ **لَذِكْرَىَ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ** أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (سورة: ق – الآيتان: ٣٦– ٣٧).

قال ابن كثير: يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين (مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا) أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: (فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ) قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. وقوله: (هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضًا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص. وقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى) أي: لعبرة (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) أي: لُبٌّ يَعِي به. وقال مجاهد: عقل، (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: يعني لا يحدث نفسه بغيره، (وَهُوَ شَهِيدٌ) وقال: شاهد بالقلب[1].

وقال ابن الجوزي: "قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذلك) يعني: الذي ذكره من إهلاك القرى (لَذِكرى) أي: تذكرة وعِظَة، (لِمَن كان له قلبٌ) قال ابن عباس: أي: عقل.

١ – تفسير ابن كثير – (ج ٧ / ص ٤٠٨-٤٠٩)، بتصرف يسير.

قال الفراء: وهذا جائز في اللغة أن تقول: ما لَكَ قلب، وما معك قَلبُك، تريد العقل. وقال ابن قتيبة: لما كان القلب موضعاً للعقل كنى به عنه. وقال الزجاج: المعنى: لمن صرف قلبه إلى التفهُّم، (أو ألقى السَّمْع) أي: استَمَع مِنِّي (وهو شهيدٌ) أي: وقَلْبُه فيما يسمع. وقال الفراء: وهو شهيد أي: شاهد ليس بغائب"[١].

١ – زاد المسير – (ج ٨ / ص ٢٢).

الخاتمة:

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أنه منح بعض القلوب صفات حميدة، بسبب وبغير سبب، ومن ذلك قلوب بعض الأنبياء والمرسلين وعباده المؤمنين الذين علم ما في قلوبهم من الخير والتقى والفلاح، فكتب في بعضها الإيمان وهدى بعضها إلى الرشاد، وربط على بعضها، وبعض ألف بينها، وأنزل السكينة عليها.

والقلب المهتدي بهداية الله تعالى قلب مؤمن مستسلم لأمر الله، وموقن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهو قلب مطمئن بقضاء الله تعالى، وما أسعد هذا القلب.

وكذلك أخبر الله تعالى أن بعض عباده الصالحين قد طهروا قلوبهم من أمراض الشبهات والشهوت، وجعلوها نقية عامرة بالإيمان، متصفة بالتقوى والاطمئنان، متزينة بالخشوع والخضوع والإخبات للواحد الديان، راجعة إليه بالأوبة والإنابة والإذعان، مشفقة منه بالخوف والوجل رغبة في السلامة من عذابه والأمان.

وفي كل الأحوال فإن هذا الفريق من عباد الله متصف بالذكر الدائم لعظمة الخالق وفضله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، ومعتبر بالتذكر وغير غافل عن الغاية الأساسية التي خلق من أجلها.

وعلى المؤمن أن لا يغفل عن هذه الصفات الحميدة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، وشرف بها عباده الصالحين، والخير كل الخير يكون في محاولة الإقتداء

بعباد الله الصالحين وتزيين القلب باليقين والاطمئنان والخشية وسائر تلك الصفات التي وردت في سياق المدح والتذكرة بنعم الله تعالى.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. إحياء علوم الدين، لأبي حامد، محمد بن محمد الغزالي، صحح بإشراف: عبد العزيز عز الدين السّيروان، ط٣، دار القلم – بيروت.
٢. إرشاد العقل السليم، للقاضي محمد بن محمد أبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د ت).
٣. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة حميدو – الإسكندرية.
٤. إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، طبعة دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٩هـ.
٥. امتحان القلوب، ناصر بن سليمان العمر، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض، ١٤١٢هـ.
٦. البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
٧. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).
٨. بيان فضل علم السلف على علم الخلف، للحافظ ابن رجب الحنبلي، حققه محمد بن ناصر العجمي، دار الصميعي، الرياض، ط٣، ١٤١٢هـ.

٩. التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
١٠. التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٦هـ .
١١. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، تحقيق: سامي محمد علي سلامة، دار طيبة للنشر، ط٢، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
١٢. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، مكتبة مصطفى الحلبي – مصر، ط٣، ١٣٨٨هـ.
١٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود وأحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
١٥. جامع العلوم والحكم، للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٥، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
١٦. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد اللَّه محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧. الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ –١٩٩٤م .
١٨. الروح، ابن القيم الجوزية، حقق نصوصه وخرجه: يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤هـ.

١٩. زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٢٠. سنن الترمذي : الجزء الأول والثاني بتحقيق أحمد محمد شاكر ، والجزء الثالث تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والجزء الرابع والخامس بتحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢١. الصحاح في اللغة، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.
٢٢. صحيح البخاري . طبع المكتبة الإسلامية باستانبول – تركيا ، ١٩٧٩م.
٢٣. صحيح مسلم بشرح النووي : ط. الثانية ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٢٤. صحيح مسلم، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.
٢٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، عن الطبعة التي حقق أصلها الشيخ عبد العزيز بن عبد اللّه بن باز، ورقم كتبها وأبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٦. فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: يوسف الغوش، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٢٧. الفوائد، لابن القيم، تحقيق: محمد عثمان الخشن، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ.
٢٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، لبنان- القاهرة، مصر، ط١٧، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
٢٩. القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٣٠. لسان العرب، لابن منظور، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣١. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم ومساعدة ابنه محمد، تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ، مطابع الرياض، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
٣٢. مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، طبعة دار الجيل، بيروت – لبنان.
٣٣. مرض القلوب وشفاؤها عند شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم (ج/١٠ص ٣١٠ إلى ص/٤٠٠)، مجلة جامعة أم القرى العدد ٢٣، جمع ودراسة: د. سعود بن حمد الصقري.
٣٤. مسند الإمام أحمد: مصورة الطبعة الأولى ومعها فهرس الألباني ، المكتب الإسلامي ، دار صادر – بيروت، طبعة أخرى ، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف بمصر.

٣٥. مسند الإمام أحمد : المشرف على تحقيقه الشيخ شعيب الأرناؤوط ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ، مؤسسة الرسالة – بيروت .

٣٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للرافعي: تأليف أحمد بن محمد المقريء الفيومي، ط الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، دار الكتب العلمية – بيروت .

٣٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

٣٨. موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريمρ، إعداد مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ: صالح بن عبد الله بن حميد، وآخر، دار الوسيلة، جدة، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

٣٩. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

٤٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة الإسلامية.